الباب الثالث

أو

أدب الرحلات

⑦ المـــدينـــة

فردوسى . . يا فردوسى المفقود !

« إن المدينة الفاضلة التى نتمنى لأنفسنا العيش فيها ، ينبغى أن تكون محققة لآمالنا ، بشرط أن نتجنب فيها ذلك المستحيل الذى لا يطاق »

أرسطو

بعد أن ضحى مع « فاوست » بروحه ليفتدى المعرفة ، وبعد أن انتهى مع « هكسلى » إلى اليأس من العلم فى هذا العصر ، ثم عاد مع « صمويل الكسندر » يؤمن بالزمان والمكان والألوهية ، وبعد أن أبحر إلى ضفاف الكنج منبت التصوف لينهل من رادا كريشنان فيلسوف الهند العظيم ، بعد هذا كله راح يطوف مثل « يوليسيس » فى المجهول . . يعانى دوار البحر . . ويفتش فى حوانيت المدينة وفى أشجار الغابة وفى رمال الصحراء . . عن ذلك الشىء

السعيد . . عن ذلك البلد البعيد . . عن الفردوس المفقود الذى لا وجود له ، والذى نحلمه ونتمناه ، ونعمل جميعاً على إيجاده . . إيجاد ما لا وجود له !

وتلك نقلة طبيعية فى تطور الإنسان الفكرى والروحى ، لأن المشكلة هنا ليست فى خلاصه فردياً ولكن فى خلاصه جماعياً ، أعنى فى خلاصه مع الآخرين أو من أجل الآخرين . وهذا هو الفرق بين رسالة الصوفى ورسالة المفكر ، الصوفى لا يهمه سوى كشف الحقيقة من حيث هى حقيقة تقصد لذاتها بصرف النظر عن أى اعتبار ، وهو يكشفها من أجل خلاص روحه ، والنجاة بنفسه من العالم ومن فى العالم ، ولذلك فهو إذا صعد إلى السموات العلى لا يبغى العودة أبداً ، وهذا على العكس من المفكر أو الفيلسوف الذى يكتشف الحقيقة من أجل خلاص العالم ، ويبحث عن المجهول من أجل توسيع دائرة المعلوم ، وينشد اليقين من أجل التغيير والإصلاح ، فخلاصه خلاص بالكل أو بالمجموع .

ولكنه عندما يضيق بالظروف المحيطة به ، ثم يشعر بالعجز عن تغييرها ، فإنه يسترسل فى أحلامه ليظفر فى دنيا الخيال بما استحال عليه أن يظفر به فى دنيا الواقع ، وليشيد للناس قصوراً فى الهواء على أمل أن تتحقق يوماً فوق تراب الأرض . وهو هنا لا يفكر ليحلم وإنما يحلم ليفكر . . وليتحول الفكر إلى سلوك وممارسة . . إلى فعل وانفعال . وكأنما يحول الشعر إلى واقع دون أن يجمل الواقع ويحوله إلى شعر . . أليس يكفى الأديب أو المفكر أن يفتح أعين الناس وآذانهم ليروا ما حولهم ويسمعوا . . فينبئق عن شقاء ما يرون وبؤس ما يسمعون كل محاولة للتغيير والإصلاح ؟ أليس تصوير العالم الأفضل بقادر على أن يوقظ غفاة البشر حتى يثوروا مطالبين بالمثل ؟ . أليس فيما صوره كبار الأدباء من « يوتوبيات » أو « مدن فاضلة » تحريضاً على التمرد والثورة ؟

لنتفق إذن على أن « الرحلات » التى قام بها مصطفى محمود فى شوارع « المدينة » وبين أشجار « الغابة » وفوق كثبان«الصحراء»، ليست نوعاً من السياحة الخارجية هدفها الفرجة والاستمتاع ، ولا هى نوع من المغامرة السـندبادية غرضها الإثارة والإنبهار ، وإنما هى بحث مهموم عن « مدينة فاضلة » أو فردوس مفقود يأخذ من المدينة حضارتها ، ومن الغابة بكارتها ، ومن الصحراء بداوتها ، فتتحقق فيها آمالنا ، دون أن نقع فى هوة ذلك « المستحيل » الذى لا يطاق ، وأعنى به الكمال المطلق الذى لا يتسق وطبيعة البشر !

لذلك لم يجنح مصطفى محمود إلى تصوير « يوتوبيـا » كتلك التى صورها « توماس مور » مرتحلاً بنا إلى أرض رآها بعين خياله ، أرض عرف شعبها كيف يعيش سعيداً بلا حروب تفتك بأبنائه ، ولا ملكية تشعل فى النفوس نيران الجشع ، ولا امتياز لطبقات من المجتمع دون طبقات أخرى ، بل ولا أمراض تنهش فى أجساد البشر.

كذلك لم يذهب إلى ما ذهب إليه « صمويل بتلر » فى كتابه « آرون » من تصوير شعب سعيد كل السعادة فى أرض بالغة الكمال ، لا إرهاق فيها للعمال ، ولا عناء فيها للفلاحين ، ولا استبداد ، أى استبداد من طبقة الحكام .. ولا إلى ما ذهب إليه « وليم موريس » فى كتابه « أبناء الأرض » من الحديث عن شعب وصلت به الرفاهية إلى فقدان الرغبة فى الملكية الفردية ، والإحساس لدى الجميع بأن الأرض للكل وليست لفئة ، وأن الأساس فى الحياة زيادة فى الإنتاج وعدالة فى التوزيع .

كذلك لم يبشر مصطفى محمود بمثل ما بشر به هـ. ج. ويلز فى كتابه « يوتوبيا حديثة » بحياة اشتراكية لا تعرف الفوارق بين الطبقات ، ولا التمايز

بين الأفراد ، ولا الحدود بين الأمم ، لأن كل ما تعرفه لغة واحدة ، وحياة عالمية واحدة ، تفيد إلى أقصى حد بمخترعات العلم الحديث . كما لم يحلم بمثل ما حلم به « ألدوس هكسلى » فى « الجزيرة » البعيدة عن تناقضات البشر ، وصراع الإيديولوجيات ، وأشباح الحروب العالمية ، لأن كل ما فى الجزيرة حب . . وحرية . . وحياة . . وتعاون كامل بين العلماء من أجل تحقيق اشتراكية الأرض !

أقول إن مصطفى محمود لم يفكر فى شىء من هذا على الإطلاق ، لأنه يعرف ظروفه وظروف مجتمعه ، ويحاول بقدر الإمكان أن يستجلب من العوالم التى زارها أفضل ما فيها ليعالج بها أسوأ ما فى مجتمعه،لا طمعاً فى ثورة ولكن رغبة فى إصلاح ، فهو يأخذ من المدينة أفضل ما فيها من مظاهر التمدن والتحضر ، كما يأخذ من الغابة أروع ما فيها من سمات البكارة والطهارة ، ومن الصحراء يستعير روح البداوة والحياة على الفطرة !

ومن هذا كله يكتب روشتة الدواء ، الكفيلة بمعالجة ما فى مجتمعه من أدواء ، ومن هنا نبت أسلوبه فى « أدب الرحلات »،وهو الأسلوب الذى لا يعتمد على الريبورتاج الصحفى أو الوصف التسجيلى،ولا يعمد إلى الإبهار اللفظى أو التجمل الفنى ، وإنما يتوخى التعريف والتثقيف ، والجمع بين شهادة الرؤية من ناحية ، وشهادة الحواس من ناحية أخرى ، مع مزج الشهادتين بجهود الباحثين الذين استكشفوا هذه العوالم وكشفوا عما فيها من خبايا وأسرار .. فالرغبة فى المعرفة هى التى نفخت شراع قاربه الصغير فى رحلته إلى البلد البعيد ، والرغبة فى المعرفة هى المسئولة عن الشواطئ التى رسا عليها ، والجزر التى لجأ إليها ، بحثاً عن فيروز الشطآن ، وعن اللؤلؤ ذات الأصداف السبعة . ومن هنا « كان فضول المعرفة . . وعطش العلم . .

والرغبة فى الكشف عن هذا التيه والتعرف عليه . . أقوى من الرغبة فى التجمل الفنى » .

ولكن هذا لا يعنى أن رحلات مصطفى محمود أقرب إلى الدراسة العلمية منها إلى الرواية الفنية ، فثمة توازن رقيق بين مادة العمل وأسلوب التناول ، أو بين علمية المضمون وفنية الشكل العام . وليس هذا عيباً على الإطلاق ، لأن الإفراط فى العلمية يحيل العمل إلى دراسة أكاديمية جامدة ، ينقصها النبض ويعوزها الرحيق ، كما أن الغلو فى الفنية يخلق شخصيات قصصية ذهنية يطالع فيها القارئ أفكار كاتبها لا أفكارها هى . . . وإنما المزج بين الجانبين هو الكفيل بخلق ذلك اللون من التعبير، الذى تجد فيه « الفكرة » وقد استعارت أسلوباً من القصة . . لتخرج منهما منطبعاً بذلك الصوفى الفنان الذى تنفذ من عينيه نظرة شاملة للحياة ، بعد أن اضطرم قلبه بالمواجع الإنسانية ، وسرت فى بدنه قشعريرة حادة ، فبدا كما الواقف على حافة بئر مظلمة ، يطل فى مائها العميق الصامت ، يلقى فيه بالحجارة ، فتدوى فى قاع الصمت ، وتقذف فى وجهه بالرذاذ البارد . . .ولكنه يعود من هناك بعد أن يمسح حبات الرذاذ ، ليكشف القناع عن وجه من وجوه الإنسان فى علاقته بالمجتمع وبالطبيعة وما وراء الطبيعة !

وهذا هو طابعه فى كتابة « أدب الرحلات »،اسمعه يعبر عنه قائلاً :

« كنت تواقاً إلى المعرفة . . وكنت أشعر أن قارئى أكثر منى رغبة فى التعرف على هذه المجاهل . . منه فى قضاء لحظة استرخاء لذيذة بين انطباعات فنية ناقصة . . ولهذا فضلت أن يكون كتابى دعوة إلى معرفة وعلم . . أكثر منه دعوة إلى متعة فقط » .

وقد يكون من الطبيعى أن نبدأ رحلات مصطفى محمود بالكلام عن

الغابة ثم الصحراء وأخيراً المدينة ، على اعتبار أن المدينة فى سلم التطور الاجتماعى هى التى ظهرت بعد الصحراء ، وبعد الغابة . ولكن المتتبع لتطور مصطفى محمود الفكرى والروحى،لا يسعه إلا أن يبدأ بالمدينة التى ذاقها إلى درجة الغثيان ، وتقيأها حتى الثمالة ، ووصفها « بالشىء الخانق اللزج » وراح يطلق على أمراض مثل . . القرحة . . والسكر . . والذبحة . . اسماً واحداً حقيقياً هو « المدينة » ! وكان أمله الوحيد فى الشفاء هو « الغابة » !

فما الذى رآه مصطفى محمود فى المدينة ، أو كيف كانت رؤيته للمدينة، حتى لقد أصابته بذلك المرض الأليم . . أو الألم المريض !

فى ألمانيا رأى « الليالى الحمراء » . . عرايا من كل نوع . . لوحات لا تنسى . . ساعات من العمر هى أجمل ما فى العمر . . سينمات تتفنن فى عرض الجنس . . ومسارح تتفنن فى عرض الغزل . . ومشارب للبيرة الرديئة يختلط فيها الجنسان فى تبذل . . وأندية للقمار . . وحانات لتبادل الصفقات المريبة ؛ وخيل إليه على حد تعبيره أنه يعبر حدود ألمانيا بدون « باسبورت » .

وصحيح أن هذا الوجه أحد وجوه ألمانيا وليس كل وجوهها ، فعلى الوجه الآخر هناك ألمانيا المصنع حيث كل شىء له معناه وكل شىء له جدواه . . الخردة تتحول إلى أنهار من الحديد السائل ، والحديد يتحول إلى أنابيب وأسياخ وألواح وشرائح ، والهواء يتحول إلى سماد . . والزبالة تتحول إلى ورق . . وباختصار التراب يتحول إلى ذهب ليجعل من ألمانيا عميدة الصناعة فى العالم . . صحيح هذا كله . . ولكن يبقى الإنسان . . أين الإنسان فى المدينة ؟. أو أين إنسان المدينة ؟

إنه كما رآه مصطفى محمود فى ألمانيا ذلك الغارق طوال أيام الأسبوع فى دخان المصانع ، وأما يوم الأحد فيغرق فى دخان السجائر . . فى

الكنيسة فى الصباح . . وفى المساء فى جوف الكبارية أو فى أحشاء الطريق . . إنه يحيا ذلك المستحيل الذى لا يطاق !

ولكن ذلك الإنسان الذى لا يمكن أن يكون أنا أو أنت أو هو أو هى . . أو أى إنسان ، أين يلقاه مصطفى محمود . . إذا كان قد أطبق عليه شيطان فاوست وافتقده فى ألمانيا أرض جوته العظيم ، فهل يلقاه فى إيطاليا . . فى ذلك الفردوس الذى حدثنا عنه دانتى اليجيرى . ؟

الواقع أنه لم يجد فى روما الإنسان ، وإنما وجد آثاره . . رجع صداه . . وجده فى التماثيل الكثيرة التى تملأ كل شارع وكل ذقاق وكل ميدان . . والتى جعلت من روما بلداً قديماً ومتحفاً للذكريات ! إن روما حافظ أمين لتاريخ الإنسان أو لتاريخ الفن الرومانى فى حضارة الإنسان ، ولكنها ليست حافظاً أميناً للإنسان . . فالشوارع ضيقة . . والبيوت كالحة . . والوجوه شاحبة . . والنساء يتكلمن كثيراً . . ويحركن أيديهن كما تفعل نساء بولاق . . أما الشحاذون ففى كل مكان !

وهذه هى روما . . عاصمة إيطاليا . . وهذه هى إيطاليا ذاكرة الحضارة . . ومتحف التاريخ . . ومقبرة الإنسان !

« كانت المدينة تبدو كمتحف بدون أسوار . . وبدون باب . . فى كل مكان تجد تمثالاً قديماً ونافورة . . وفى كل شبر تجد خرابة أثرية على بابها عسكرى ! » .

ولكن هل هذا هو التقدم ؟ . مجرد متاحف ونافورات ؟ ! أليس التقدم فى هذا العصر هو الصناعة ؟ وأليست الصناعة تعنى الحرية ؟ لأن الآلة تحرر الإنسان . . وتوفر له أثمن ما يملك . . الطاقة والوقت والعمر . . وتحرر الشعوب بمنحها القوة . .

ويخرج مصطفى محمود من هذه التأملات بفكرة مؤداها أن الحضارة لكى تصبح كائناً حياً يمشى على ساقين وليست مجرد تمثال جامد يجثو على ركبتين . . الحضارة بهذا المعنى الحيوى أو الحى تقوم على ساقين . . أحدهما الكتب والآخر هو المصانع . فى الكتب توجد الغايات . . توجد الآداب والعلوم والفنون . . وفى المصانع تصنع الوسائل إلى هذه الغايات . . وكأنما مصطفى محمود يحور عبارة ديكارت الشهيرة . «اعطنى امتداداً وحركة وأنا أصنع لك العالم»، بعبارة أخرى يقول فيها . . اعطنى كتاباً ومصنعاً وأنا أصنع لك الحضارة . . أصنع الإنسان !

إذن فهل يجد مصطفى محمود ذلك الإنسان فى باريس . . أرض الكتاب والمصنع . . ومدينة النور والنيران !

. كلا . . . ولا حتى فى باريس ! فكل شىء فى باريس يعرض بلغة الجسم العارى . . إعلانات القمصان . . إعلانات العطور . . الدعايات السياسية . . آخر دواء منوم . . حتى طوابع البريد . . تصدر لك مصلحة البريد طابعاً عليه رسم عريان !

واهتمام الباريسيين بالعرى ليس منبعه الحرمان الجنسى . . كلا . . فالاختلاط فى باريس هو القاعدة . . والعلاقات ميسورة . . وإنما منبعه فلسفة باريسية اسمها فلسفة الجسم العارى . . فالجسم العارى لغة كلام . . وأسلوب حوار . . وأداة تعبير !

ولكن هل معنى ذلك أن باريس كلها هى ملاهى الستربتيز وحدائق الخنافس وفاترينات الأعضاء التناسلية ؟

الواقع لا . . ! فى باريس عشرات المسارح . . وعشرات المتاحف . . وعشرات المكتبات العامة . . وفيها أحدث ما وصلت إليه مبتكرات الأذهان

من فن رفيع..بعيد عن الإغراء . . خالٍ من إسفاف التجارة !

وعلى ذلك فليس فى عرض الجسم العارى إثارة . . ولا فى قبلات المترو دعارة . . ولا فى احضان الطريق تحلل أو انحلال . . وإنما الجسم العارى فلسفة . . لها منطقها الطبيعى وتبريرها المشروع . . فهى الوجه الآخر من العمل المضنى . . وهى المكافأة المشروعة بعد الإرهاق الشديد.فإذا كان الباريسى يسكر طينة ليلة رأس السنة ، فلأنه يعمل بيديه وأسنانه طول العام !

ولكن هل قدر على الإنسان أن يسكر طينة طوال يوم ، ويعمل كالحيوان طوال عام ! هل قدر على الإنسان أن يظل مشدوداً بين طرفين كلاهما مستحيل . . فقدان الوعى فى السكر ليلاً . . وفقدان الروح فى العمل نهاراً ؟ !

ومهما يكن من فلسفة العرى عند الفرنسيين ، ومن أنها ليست ستاراً ولكنها شعار . . شعار الأفيشات العارية . . والأفلام العارية . . ومسارح بيجال العارية . ومهما يكن من أنها لغة يومية عادية،فقدت معناها الجنسى وإن احتفظت بشكلها الجنسى فقط . . هل هذا هو الإنسان ؟

الإنسان وقد تعرى وإن غطى عريه بكلمات جوفاء !

لقد خرج مصطفى محمود من رحلته فى باريس بهذا القول الذى شاء أن يعتبره قولاً غير مأثور ، والذى يقول : « فى القاهرة تجد بين كل مقهى ومقهى . . مقهى . . وفى بيروت تجد بين كل كباريه وكباريه . . كباريه ، وفى سويسرا تجد بين كل بنك وبنك . . بنك ، أما فى باريس فبين كل أفيش عار وأفيش عار تجد أفيشاً عارياً » .

وهذا القول غير المأثور له دلالته على إنسان باريس . . أو الإنسان

فى باريس . . ذلك الإنسان الذى أصابه الغثيان . . وخنقته حالة الحصار . . وذبحته الأفواه اللامجدية . . وعبثاً يبحث عن الزمن الضائع . . أو عن الأمل . . ذلك الأمل الحقير كما وصفه سارتر !

ترى هل يجد ذلك الأمل حتى ولو كان حقيراً . . على الشاطئ الآخر من بحر المانش ؟ ! وإذا لم يكن قد وجده فى مدينة النور ، فهل يرتطم به فى مدينة الضباب ؟

هذا هو السؤال الذى حاول مصطفى محمود أن يجد الإجابة عليه فى ذلك البلد الرمادى . . فى أرض الياب . . فى مدينة الضباب . . فى لندن !

ولكن لندن تحولت إلى هايد بارك كبيرة . . فى كل خطوة تسمع نقاشاً حاداً فى السياسة ، ولا يدور فى ذهن الناس إلا السياسة ؛ فى الصحيفة . . فى الكتاب . . فى الإذاعة . . فى التليفزيون . . فى المسرح . . فى السينما . . نفس القلق ، ونفس الأسئلة ، والكابوس الجاثم الذى سماه المؤلف « اليمين واليسار » .

وكأن الإنسان الذى تحول فى ألمانيا إلى ترس فى مصنع ، وفى إيطاليا إلى تمثال فى متحف . . وفى فرنسا إلى أفيش عار . . تحول هنا فى لندن إلى مقالة فى السياسة . . وحتى الذى يتكلم فى السياسة لا تكاد تعرف مع من هو أو ضد من ؟ . إنه يتكلم فى السياسة لأنه فى لندن ، وكأنما قدره أن يتكلم فى السياسة لكى يثبت أنه ليس سياسياً ؟ أو أنه سياسى أكثر من اللازم !

أليس هذا هو نموذج المتطرف السياسى الذى نلقاه فى هايد بارك ينتقد كل شىء . . ولا يرضى عن أى شىء . . أى تهاون فى نظره خيانة . . وأى انحراف جريمة تاريخية . . وأى تشاؤم إثم لا يغتفر . . وأى تردد بورجوازية !

« بورجوازية » هذه هى الكلمة التى يحملها على لسانه كل من يتكلم فى السياسة ، ويربط نفسه فى اتجاه اليسار ! « أنت بورجوازى » شعار يلقى به فى وجه كل من يقابله . . يلقيه وعينه مفتوحة كعين الصقر، تلتقط كل ظاهرة بورجوازية من تسريحة الشعر ، إلى ربطة العنق ، إلى الحذاء اللميع ، إلى بذلة السهرة . . لقد تعلم جيداً الدرس الذى تلقاه من بعض السذج ممن يتاجرون بشعار اليسار . . واليسار أكبر بكثير من هذا كله ، لأنه أخطر بكثير من هذا كله . . إن مضمون اليسار وليس شعاره هو القادر على التغيير والتطوير، أما مجرد رفع الشعار فهو الكفيل بإيقاف التنفيذ . . تنفيذ كل ثورة من شأنها إصلاح العالم !

فيا أيهااليسار كم من السخافات ترتكب باسمك !

ويا أيها اليسار ليس يكفى أن تصرخ بأعلى صوتك قائلاً : « يسقط العالم » بل عليك أن تكمل عبارتك بقولك : « أنا أبنيه أفضل مما هو الآن » !

أجل . . إن كل ما فى عالمنا اليوم من ثورات هى مراحل ما قبل الثورة . . إنها الثورات التى يجب أن تثور على نفسها إذا أرادت أن تحقق حرية حقيقية للإنسان،وليس مجرد شعارات فارغة من المضمون . . كما لو كانت على حد تعبير شكسبير ضجيجاً بلا طحن ! أو على حد تعبير إليوت إشارة بلا حركة ، وظل بلا لون !

ولكن إذا كانت لندن تعيش فى عالم بلا إنسان . . فهل تفكر فى عالم به إله ؟

هذا هو السؤال الآخر الذى راح مصطفى محمود يبحث عن إجابته، فى الكنيسة ثم فى كتب الدين ثم فى الجمعيات الروحية أو جمعيات

تحضير الأرواح !

ولكنه فى هذه المجالات جميعاً لم يجد الله . . ووجد مكانه شيئاً آخر ! فى الكنيسة وجدهم يقدمون المرطبات ، ويسمحون للفتيان والفتيات بقضاء أوقات مرحة من الرقص على اسطوانات الخنافس ، ويسأل أحد القساوسة عن رسالة الكنيسة فى الوقت الحاضر ، فيجيب : « الكنيسة ليست ملجأ عجائز . . لقد تحولت الكنيسة إلى مقبرة بانعزالها عن واقع الحياة . . وإذا استمرت الكنيسة تقدم للشباب مالا يطلبه وما لا يفكر فيه ، فسوف تتحول إلى قبو مهجور ولن يدخلها أحد . إننا نفهم دور الكنيسة خطأ ! دور الكنيسة الحقيقى أن تقدم للشباب احتياجاته » .

انتهى كلام القس ، ولم يوضح تماماً ما هى تلك الاحتياجات ؟ ! الكباريه يقدم للشباب احتياجاته أيضاً،فما هو الفارق بين رسالة الكنيسة وبين رسالة الكباريه ؟ هذا هو السؤال . . السؤال الذى لم تجب عليه الكنيسة فهل نجد الإجابة فى كتب الدين ؟

ولا حتى فى كتب الدين . . فها هى مكتبة داتكنز الشهيرة التى تحتوى كل ما يخطر على البال من كتب . . كتب فى الأديان . . وفى الأرواح . . وفى التنجيم . . وفى السحر . . وفى كتابة الأحجبة . . وحتى « الشبشبة » تجد فيها كتباً تبحث فى أصولها وقواعدها وأساليبها وتاريخها منذ القدم حتى الوقت الحاضر. ولكن هل تجدى هذه الكتب ؟ وهل تفيد فى حل مشكلات العصر؟ أو مشكلاتنا فى هذا العصر؟ يسأل مصطفى محمود صاحب المكتبة العجوز فيجيبه بابتسامة ساخرة : « مما يؤسف له يا سيدى إنى متخصص فى بيع الكلام الفارغ . . ورأيى الحقيقى أن كل ما فى هذه المكتبة كلام فارغ يجب أن يلقى فى صندوق القمامة » .

لقد اختفى الله من أروقة الكنيسة ومن فوق أرفف الكتب ، فهل يجده السائح فى الجمعيات الروحية ؟

٣٣ ميدان بلجراف – مارلبورن . . يا له من عنوان عجيب ، إنه عنوان الجمعية الروحية لتحضير الأرواح . . وهى جمعية ذائعة الصيت ، تحمس لها الكثيرون من ذوى الأسماء اللامعة فى الأدب والعلم والفلسفة ، حتى خلدت أسماؤهم على قاعات الجمعية . . قاعة سيركونان دويل . . الأديب الشهير صاحب كتب شرلوك هولز ، سير أوليفر لودج العالم المعروف مخترع الصمام الإلكترونى . .

فى هذه الجمعية حضر المؤلف عرضاً لتحضير الأرواح ، قامت به سيدة عجوز تبادلت حواراً مع سيدة أخرى فقدت ابنها فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الحوار كشف عن دجل ضخم ، وادعاءات لا أساس لها من الصحة ولا آثار لها فى الواقع . . إن كل رواد الجمعية عجائز ، أغلبهم من النساء العجائز هن فى الغالب ضحايا الهستيريا والخوف من الموت ، ولكل واحدة ابن فقدته فى الحرب وتتمنى أن تسمع صوته ، وهى بالتالى مهيأة لأن تصدق كل ما يقال . . وما يقال لا أساس له من الصحة ولا آثار له فى الواقع . وهذا معناه أن الجمعية فشلت فى أن تخلق إيماناً حقيقياً ، أو تجتذب إليها عقلاً شاباً واحداً .

والدلالة الأخيرة على هذا كله هو انتصار الحضارة المادية ، وانزواء الحياة الروحية ، حتى لم يعد يكفى لإعادة الإيمان إقامة الكنائس ولا إصدار الكتب الدينية ولا تأسيس الجمعيات الروحية ، فهل يستدعى الأمر نزول المسيح من جديد ليمشى على الماء أمام مائة مليون أوربى ليعود إليهم الإيمان مرة أخرى ؟!

ربما . . . ولكن من يدرينا أن المسيح لو عاد من جديد ، لن تتسابق ملايين الأيدى لصلبه من جديد ؟ !

ولكن إذا كان الله والإنسان لم يعد لهما وجود فى المدينة الأوربيـة ، فهل نجدهما فى المدينة العربية ؟

وعندما نختار مثالاً للمدينة من بين البلاد العربية . . لا نجد أمامنا سوى بيروت . . فهنا المدينة فى صورتها المثلى ، أوهنا المثل الصارخ للمدينة . . فإذا كنا نجد المدن فى سائر العواصم العربية . . فى القاهرة . . فى دمشق . . فى بغداد . . فى الرباط . . فإننا نجد المدينة فى بيروت . . فكيف رأى أديبنا السائح أو سائحنا الأديب هذه المدينة . . بيروت ؟

رآها وجهاً آخر لباريس ، أو كما سماها « باريس الشرق » ؛ ولكن إذا كانت باريس كما يقال عنها مدينة النور . . النور الذى ينبثق من العـلم ، فإن بيروت هى الأخرى مدينة النور ، ولكنه النور الذى ينطلق من الإعلان . . فبيروت هى بلد الكباريه . فى كل شارع كباريه . . كباريهات تحت الأرض . . وفوق الأرض . . وفى الخنادق . . وفى الكهوف . . وتسأل لماذا انتعش فن الكباريه بالذات فى بيروت ؟ ويأتيك الجواب :

ليس فى لبنان بئر بترول واحد ، ولا منجم حديد واحد ، واللبنانى لا يملك سوى منظر جميل،ورقعة شاعرية على البحر . . البئر الوحيدة إذن هى جيوب الزوار ، والوسيلة الوحيدة هى نزحها فى رشاقة،وتلك هى خطة التنمية ؛ ولكى تؤتى خطة التنمية أفضل ثمارها ، لا بد أن تكون الصلة حسنة بالجميع . . والترحيب على أشده لأى وارد . . وهذا معناه أن يصبح الإنسان البيروتى هو كل إنسان ولا إنسان !

إنه ليس ضد أحد ولكنه مع الجميع ؛ الكل سواء أمام الليرة اللبنانية . .

والليرة اللبنانية هى ورقة التوت التى تستر عورات الجميع . . وبدون ورقة التوت يفتضح أمر الإنسان فى بيروت ، ولا يهم من أى شجرة تقطف هذه الورقة ، المهم أن تكون معك أوراق التوت ! تكرم سيدى . . أهلين بيك وسهلين . . يعطيك العافية . . ساوى حالك . . عيونى . . هذا هو قاموس الإنسان البيروتى . . إنها لغة القومسيونجى الذى يبيع كل شىء . . لكل إنسان !

وقد تصطدم بالمثقف اللبنانى فتجده ساخطاً متبرماً ، يتكلم فى أسى لضياع المبادئ وفى حرارة لفقدان الاتجاه . . وفى شوق إلى أيديولوجية واضحة .. ولكنك سرعان ما تكتشف أنه حديث استهلاكى . . حديث لمجرد الترف العقلى . . استثمار وقتى على قارعة الطريق . . أما ساعة الجد . . فتجده يصرخ بأعلى صوته : « صرماية على كل المبادئ . . مالنا نجن ومال ها المعركة . . نحن هون بنحب الجميع » .

وهنا تنطفئ مصابيح الثقافة لتضاء إعلانات الكباريه . . فالكباريه أسهل وأسرع وسيلة لإقامة فاترينات جذابة للإمتاع . . أما السينما فتحتاج إلى مؤلف قصة وكاتب سيناريو ومخرج وممثل ومدير إنتاج وحكاية طويلة معرضة بعد هذا كله للخسارة ، وكذلك المسرح يحتاج إلى جهد أكبر وهو غير مضمون الإيراد ، والفن الإذاعى والفن التليفزيونى ليسا أسعد حالاً من فنى السينما والمسرح . . فالإذاعة والتليفزيون فى بيروت هى قنوات إعلان أولاً وقبل كل شىء . . أما الكتاب اللبنانى فهو بضاعة تصدر ولا تستورد ، تطبع ولا تقرأ ، وهو تجارة استثمار لعقول الآخرين وليس تجارة استهلاك ثقافى بالنسبة للمواطن اللبنانى . . .

وهذا معناه فى النهاية أن الأيديولوجية الرائجة فى بيروت هى الحرية

الفردية بلا حدود..والطموح المادى والشخصى بلا ضوابط . . والثراء بسرعة وبأى طريق ! إن الإنسان البيروتى إنسان ذو بعد واحد . . بل إنسان ذو بعد وحيد . . أن ينجح . . وينجح . . وينجح . . كائناً ما كان مضمون هذا النجاح !

النجاح . . وليسقط العالم أو يهلك بالطاعون ! النجاح . . ولو فى ليل بيروت الأحمر الذى تنزف فيه ملايين الليرات ! النجاح . . ولو عن طريق اللامبدئية التى تدر كل فئات العملات من كل بلاد العالم . .

تلك هى بيروت . . مدينة بلا قلب . . وذلك هو المواطن البيروتى . . إنسان مات فى جيبه الله !

ولكن هل يمكن أن تعيش بيروت زوجة للكل ؟ . هل يمكن أن تظل لقيطة بلا أب ولا أم ؟

هل يكفى طلاقها من عروبتها لكى تنضم إلى العالم . . وتصبح مدينة عالمية.ويصبح مواطنها إنساناً عالمياً ؟

تلك هى الأزمة البيروتية أو الأزمة اللبنانية بوجه عام ، وإذا كانت هذه الأزمة هى السبب فى هذه المتناقضات التى تعيش عليها بيروت ، ويفيد منها الإنسان البيروتى ، فهى تناقضات لن تدوم طويلاً . . لن تدوم لأن مصير الدول العربية إلى وحدة حتمية ، ومصير الرأسمالية العالمية إلى زوال . . فالرأسمالية العالمية سوقها وغذاؤها الاستعمار،وإذا كان الاستعمار لا يزال فى أماكن كثيرة ، فلأن الاشتراكية تزحف لتحتل كرسياً بعد كرسى . ويومها تشعر بيروت أنها خسرت الاثنين . . عروبتها وعالميتها . . فيا بيروت الوحدة ..حد . . والعربية قبل العالمية ..وأنت حرة !

.. التى يطلقها مصطفى محمود فى وجه بيروت ، يدير

ظهره للمدينة. . أى مدينة . . وكل مدينة . . لقد ظل طوال رحلته فى مدن العالم يبحث عن تلك المدينة الفاضلة التى يتمنى أن يعيش فيها . . والتى ينبغى أن تكون محققة لآماله وأشواقه ، والتى لم يضع لها سوى شرط واحد . . أن يتجنب فيها ذلك المستحيل الذى لا يطاق . .

لكن هذا الشرط لم يتحقق فى واحدة من المدن التى زارها ، بل كان هذا الشرط يطالعه فى كل مكان . . فى النوافذ والطرقات . . فى البيوت والمحلات . . فى المسارح ودور السينما فى دور اللهو . . الغالى والرخيص . . بل فى الكنائس والمتاحف وكتب الدين وجمعيات تحضير الأرواح . . لقد كان المستحيل الذى لا يطاق يطبق عليه من كل جانب . . ذلك المستحيل هو موت الإله وضياع الإنسان !

فإذا كانت المدينة هى المسئولة عن ذلك ! ترى أين يرى الله ؟ وأين يجد الإنسان ؟

⑧ الغابة

سلام على الأكواخ ! حرب على القصور !

« كل شيء كما صنعته يد الطبيعة حسن ، ولكنه يفسد بين يدى الانسان . عندما يلزم أرضاً بإنماء غلات أرض أخرى . وشجرة يحمل ثمار شجرة أخرى . . وعندما يخلط بين الأقاليم والعناصر والفصول . . . » /

جان جاك روسو

« كلام جميل . . ولكن هل هو كلام صحيح ؟ »

كان مصطفى محمود يفكر فى هذه الفلسفة حول حكمة « الطبيعة » طوال رحلته فى « الغابة » : « هل الطبيعة تدبر كل شيء كأحسن ما يكون التدبير ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان . . وأى تدخل من الإنسان فى الطبيعة إفساد لحكمتها ؟ » .

إنه إذا كانت الغابة هى سبيل الخلاص من المدينة ، فهل تكون سبيل الخلاص بالنسبة إلى الإنسان ؟

وهل الخلاص بالغابة استنقاذ للممكن من مخالب المستحيل ؟ فإذا كان الله قد مات فى المدينة ، وفى المدينة ضاع الإنسان ، فهل تصنع الغابة من أشجارها عرشاً للرحمن ، ومن أعشابها سندساً لبنى البشر ؟

صحيح أن المدينة شىء خانق لزج . . مرض مزمن له ألف اسم واسم . . اللغة أصبحت رخيصة مبتذلة ، الصداقة غدت حرفة . . العاطفة تحولت إلى طريقة للوصول ، البراءة ماتت ، قتلها داء اسمه المدينة . . داء اصطناع كل شىء . . اصطناع الكلام . . اصطناع السلوك . . اصطناع التهذب ؛ صحيح هذا كله . . وصحيح غيره ؛ ولكن هل يمكن للإنسان أن يتخذ موقفاً فردياً من المدينة ؟ أليس يعنى هذا الموقف رفضاً للحضارة التى صنعتها الجموع البشرية على امتداد العصور ؟

بالطبع هناك مواقف فردية حيال جميع القضايا والمشكلات ، مواقف يستطيع الفرد فيها أن يرفض الحضارة ، ويهرب إلى الغابة أو إلى الصحراء ، ولكنه لن يغير بموقفه هذا شيئاً أى شىء . . لا من الآلام النفسية ولا من الأوجاع العقلية التى طردته من المدينة إلى الغابة أو إلى الصحراء !

فالمدينة هى التطور الاجتماعى ، وربما كانت أعلى مراحل هذا التطور ؛ هى ثمرة جهدى وجهدك وجهود الآخرين ؛ وهى ليست « ظاهرة » تعرض وتزول ، ولكنها « مظهر » من مظاهر التحضر البشرى ، وهى من هذه الزاوية قادرة على أن تصحح مسارها باستمرار ، فأوجاع المدينة تعالجها المدينة ، وآلام التحضر لا تداويها إلا الحضارة !

وعلى ذلك فعلاج المدينة اللزجة التى تنام بالأقراص ، لا يكون بزيادة

عدد الأقراص ، وإلا انتحرت المدينة،ولا بالإقلال منها وإلا أصيبت بالدوار ، ولكنه بتجاوز المدينة نفسها لنفسها،والعلاء على ذاتها باستمرار !

وهذا معناه بعبارة أخرى تحويل المدينة اللزجة إلى مجتمع إنسانى أكثر نظافة ، وأكثر راحة لأعصاب البشر . والإنسان المتحضر قادر على فهم طبيعة الحضارة ، مؤمن بقدرة الإنسان على تغيير العلاقات دون الإنسانية،إلى علاقات أوسع أفقاً وأرحب مدى .

لنتفق إذن على أن الطريق إلى الغابة ، ليس هو الطريق الذى يدير فيه مصطفى محمود ظهره للمدينة وحياة المدينة ، بمقدار ما هو الطريق الذى قد يتأدى منه إلى رؤية الله ومقابلة الإنسان . . الله على الطبيعة ، والإنسان على الفطرة . . لذلك نراه يعـود إلى سؤاله عن حكمة الطبيعـة، وهل تدبر كل شىء كأحسن ما يكون التدبير ، وليس فى الإمكان أبدع مما كان وأن أى تدخل من الإنسان فى الطبيعة إفساد لحكمة الطبيعة ؟ يعود إلى هذا يعود إلى هذا السؤال بإجابة تكاد تبدو قاطعة :

« كلام فارغ طبعاً . . فالطبيعة تخطئ كما يخطئ الإنسان . . وخطاياها أفدح . . وحيوانات الديناصور التى انقرضت عن آخرها . . ونباتات السرخس التى لم يعد لها وجود . . كلها أخطاء سجلتها الطبيعة على نفسها فى حفرياتها وآثارها . . . والمجموعات الكوكبية التى تنفجر وتتبدد فى أرجاء الكون بين وقت وآخر . . دليل آخر على أن الطبيعة ليست لها خطة محكمة » .

ولكن أليست تجرنا هذه الإجابة إلى التساؤل عن الغاية فى الطبيعة ، أو بالأحرى عن الغائية فى الحياة ؟ إنه إذا كانت الطبيعة تنطوى على بعض ظواهر الفوضى ، وكانت الحياة فيها بعض مظاهر العشوائية ؛ فهل يعنى هذا انتفاء الغاية أو انعدام الغائية ؟ ألا يجدر بنا ونحن نعرى الطبيعة من

وشاحها والحياة من سترتها بأن نقول إن ثمة غائية فى الكون ؛ حتى ولو كانت غائية بلا غاية ؟

وإلا فكيف نفسر كل ظواهر الجمال التى تنطوى عليها الحياة فى بساطتها وبكارتها وشكلها البدائى الأول ؟ كيف نفسر كل مظاهر الخصب والنماء التى تتفجر بها الحياة فى مظهرها البكر أو الإبداعى الأول ؟ كيف نفسر تلك الحقيقة الطبيعية الحية التى اسمها . . الغابة ؟ !

إن الغابة ليست شكلاً يوصف ، وليست صورة تشاهد ، وإنما هى على حد تعبير مصطفى محمود : « إحساس . . مذاق . . طعم . . رجفة فى القلب »

فالغابة فى تقديره لا يمكن أن « توصف » لأن أى وصف يزرى بجلالها . . أشجارها لا تشبه ما نرى من أشجار فى الشوارع والحدائق ، أشجارها سوامق فيها عنفوان وشموخ وزعامة ، أزهارها محتقنة دموية ، وأوراقها ريانة ، وأمطارها عاتية مكتسحة ، وضبابها كثيف متراكم جياش ، برق يلمع ، ورعد يزأر ، ثم يعود الهدوء ويخف السيل . . ثم ينقطع وتلمع الشمس على هامات الشجر . . وتتلألأ فصوص الماس . .

إنها الغابة . . وهى أيضاً الغاية ، أو هى على الأقل الغائية بلا غاية !

وهى ليست شيئاً تمتلكه وإنما هى إحساس يتملكك - تماماً كما تملك أديبنا الرحالة فراح يقول : « وقد شعرت بتلك الرجفة الغامضة وأنا أتنقل بين الشجر ، وأتسمع ذلك الخرير الذى ينبعث من مئات الجداول والشلالات الصغيرة التى يعربد فيها الماء والثلج منحدراً من القمم »

إنها البداية . . من الغابة تكون . . لأنه من الغابة نبعت الحياة !

ورحلة مصطفى محمود ليست رحلة خارجية فى « أحراش الغابة » هدفها الرصد والتسجيل ، وغايتها الفرجة والمشاهدة ، شأن أى رحلة تقليدية

من تلك التى عهدناها فى أدب الرحلات ، وعلى سبيل المثال الرحالة الصحفى جون جنتر فى كتابه الشهير « داخل أفريقيا » ؛ الذى حاول فيه معالجة هذا الكل الشاسع الملتهب المسمى أفريقيا ، أو « القارة المظلمة التى بدأت تضىء » كما اختار أن يسميها فى الفصل الأول من الكتاب .

ومن هنا حفل الكتاب بأخلاط من المعلومات والبيانات والتفصيلات عن أفريقيا . . بلادها وسكانها وقبائلها وحيوانها وما فوق أرضها وما فى باطن أرضها ، فكان أقرب إلى الرحلة العلمية منه إلى أى شىء آخر ؛ الرحلة التى يخرج منها القارئ بالفكرة والمعلومة . . بالإحصائية والتاريخ . . بالرأى ووجهة النظر . . أكثر مما يخرج برجفة القلب ، وهزة الضمير، وانتفاضة الوجدان !

وقد نجد فى الكتاب عوامل الإثارة والتشويق بل والاستفزاز الذى يقتضيه أدب الرحلات . وخاصة فى تلك القارة التى لم تعد مظلمة تماماً ، بل هى الآن تومض بالنور الحى ، لأنها فى الحقيقة أشبه بالرغوة الهائلة التى انفجرت . ولم يكن انفجارها سياسيًّا واقتصاديًّا فقط ، بل كان انفجاراً اجتماعياً وثقافياً ودينياً كذلك !

وهذا ما عبر عنه الكاتب الإفريقى المعاصر ، كان ثمبا ، تعبيراً قويا رائعاً ، قال فيه :

« ها هى ذى إفريقيا تتحدث إلى أوروبا وإلى العالم . . ها هى ذى أحلامنا عن عظائم الأمور التى لم يزل علينا أن نحققها . . إن الإفريقيين قد شرعوا فى خلق لغة خاصة بهم . . تتألف من كلمات تقفز إلى الوراء وإلى الأمام ، على أقدام قوية وثابتة ، لقد بدأت حضارة جديدة تبزغ فى هذه الناحية أو تلك من القارة . . ثقافة إفريقية جديدة » !

أجل . . ثقافة إفريقية جديدة . . وعبارة كتلك التى قالها الشاعر

النيجيرى . . دنيس أوزادهى : « لا تبق على تقاليدى ، وكأنها من طرائف التحف ، إرضاء لذوق طائفة من بيض المؤرخين »

عبارة كهذه ، لم يعد لها مضمون ، لأن الشعور الجديد بالثقة الذى أخذ يغمر قلوب الإفريقيين ، قد جعلهم لا يخشون النظر إلى ماضيهم ، وخاصة بعد أن تبين لهم ، بفضل الدراسات الإثنولوجية الحديثة ، أن هذا الماضى ، لم يكن عقيماً ولا مجدباً ، وإنما كان حافلاً بالكثير مما يستحق الفخر والاعتزاز .

لقد وثبت القارة السوداء من البحر الأسود . إلى المدنية البيضاء ، وأصبحت الآن تعرض صورة لملايين البشر الذين تحولوا فى سواد ليلة من حياة القبيلة البدائية،إلى العضوية العاملة فى المجتمع الحديث !

والذى ترتب على ذلك هو توزع أهلها بين مختلف درجات التطور السياسى ، ففيها بلاد مستقلة استقلالاً تاماً ، وفيها بلاد مستقلة استقلالاً ذاتياً ، وفيها بلاد شبه مستقلة ، وبلاد تحت الوصاية ، وبلاد متنازع عليها ، وفيها محميات ومستعمرات ، وأراض واسعة لا يعرف أهلها كيف يحكمون وما زالوا يحيون حياة القبيلة أو الإقطاع .

فإذا أضفنا إلى هذه الأبعاد الهامة أهمية افريقيا بالنسبة للعالم الغربى ، أهميتها لا لموقعها الاستراتيجى فقط ، ولا لغناها الفاحش فحسب ، بل لأنها آخر حدود الغرب ، ولأن السؤال الذى يطرح نفسه على العالم الغربى باستمرار هو : « لقد ضاع معظم آسيا فهل تبقى افريقيا ؟ »

أدركنا على الفور أن أفريقيا أشبه ما تكون بالمعمل الحى ، المعمل الحى سواء بالنسبة للعالم السياسى أو بالنسبة للمشتغلين بعلم الأجناس ، فهم جميعاً يتساءلون :

هل انتهى عهد الرجل الأبيض فى أفريقيا ؟

هل الأفريقيون قادرون على حكم أنفسهم بأنفسهم ؟

وإذا كان الاستعمار قد مات ، فما الذى سيخلفه ؟

هل تستطيع الشيوعية اكتساح أفريقيا ، كما اكتسحت معظم آسيا ؟

هل تستطيع القوى المستعمرة حماية مواقعها بالتغيير والإصلاح ؟

من هنا . . ومن هناك . . كانت رحلة الصحفى الأمريكى جون جنتر فى « داخل أفريقيا » رحلة من نوع آخر ، رحلة تختلف فى الكيفية والنوعية عن تلك الرحلة التى قام بها أديبنا الصحفى مصطفى محمود ؛ فرحلة جون جنتر رحلة إلى الخارج . . إلى كنوز الغابة . . أما رحلة مصطفى محمود فهى رحلة فى الداخل . . فى ضمير الغابة ؛ فإذا كان الأول يحاول استكشاف قارة الإنسان الأسود ، فالثانى يحاول استكناه إنسان القارة السوداء !

وإنسان هذه الغابة هو عند مصطفى محمود الإنسان على الحقيقة . . الإنسان عارياً من أدران المدينة وأغطية الحضارة . . الإنسان الذى يعانق صباح الخلق الأول كما يعانق فجر مسائه الأخير دون زيف أو مغالطة . . دون سرقة أو استغلال . . دون كذب أو نفـــاق . . دون كل ما هو دون الإنسانى أو تحت البشرى . . ذلك لأن إنسان الغابة . . إنسان فى أخلاقه صلابة الإيمان بالأسلاف . . وفى سلوكه أصالة التناغم مع الطبيعة . فهو على حد تعبير الشاعر الكبير ليوبولـد سنجور : « متفتح لكل الأشياء . . مستجيب لنداء الطبيعة . . بشرط أن تكون أمينة وصادقة وعادلة ! فالإنسان الذى لا يملك أن يغير جلده ، فلا أقل من أن يمنحه البريق والحياة » .

الإيمان بالأسلاف والتناغم مع الطبيعة . . هاتان هما السمتان الرئيسيتان فى حياة الإنسان الإفريقى . . إنسان الغابة . . أما الأسلاف فهم رمز الفحولة

والبطولة والعلم بأسرار الكون ، وأما الطبيعة فهى رمز القوة والخير والحياة باعتبارها رمزاً للأنوثة . . ومن الزواج بين هذين العنصرين تقوم كل حياة . . وينشأ كل وجود !

فالطبيعة إذن عند إنسان الغابة ليست مجرد « اسم » وإنما هى إن صح التعبير « فعل » أى وجود ديناميكى متحرك ، وشبكة من القوى الفعالة والبالغة التأثير ؛ وكذلك « الأسلاف » ليسوا مجرد « موتى » وإنما هم « أحياء » بل أشد حياة من الأحياء ، وعلى ذلك لا تكون عبادة الأسلاف مجرد تقديس لقوم عاشوا فى غابر الأزمان ، وإنما هى إقرار بسيطرة الوجود الخفى على الوجود الظاهر للعيان .

ومن هنا كانت « الأقنعة » وجها آخر للإنسان ، أوهى وجهه الحقيقى الذى يطالع به الأسلاف ،إذ لا بد « للتخاطب » مع الأسلاف من أن يطالعها الإنسان بوجهه الحق ، على العكس من الوجه الطبيعى الذى « يتناغم » به مع الطبيعة !

ومن هنا أيضاً كان استخدام الأقنعة ضرورة لازمة لإبراز المعنى الدرامى من خلال لغة راسخة لمعنى كل قناع ، فأقنعة المناسبات القومية ، غير أقنعة الأعياد ، غير أقنعة القتال أو الإعداد للحرب ، ما دام القناع هو صوت الجمـــاعة ، ومن خلال القناع يستطيع الإنسان أن يخاطب الأسلاف ، وأن يستخيرهم فى دينه ودنياه .

والرقصات مثل الأقنعة لها أيضاً دلالتها الرمزية سواء فى التخاطب مع الأسلاف أو فى التناغم مع الطبيعة ، فهى تتخذ أشكالاً متنوعة ، وتثير انفعالات بعينها يحددها التراث الثقافى لدى الجماعة ، سواء فى مواقف القتال والحرب ، أو فى الأعياد والاحتفالات القومية ، أو فى المناسبات التى

تستوجب طرد الأرواح الشريرة،والعودة إلى مناجاة الأسلاف !

هذه الحياة . . على حقيقتها وبساطتها . . على طهارتها وبكارتها . . هى التى وجدها مصطفى محمود عند القبائل البدائية التى تسكن أدغال تنجانيقا وكينيا . . عند الماساى والماكامبا . . وعند الماو . . ماو . . وهى شىء آخر بطبيعة الحال عن حياة طرزان . . وروبنصون كروزو..والسندباد ، إنها الغابة الحقيقية . . الغابة بحق . . الغابة التى تختلف اختلافاً كاملاً عن غابة الشعراء ، وهواة المغامرات ، ومحترفى الصيد ، ومخرجى الأفلام السينمائية ابتداءً من كلود ليلوش وانتهاء بحسن الصيفى !

إن الغابة بالنسبة للصياد أو الشاعر أو المخرج السينمائى فسحة يوم ، تغيير جو . . ولكنها بالنسبة لمن يعيش فيها . . قدر . . ومصير . . ومجموعة من المؤثرات تعمل على تشكيل حياته وتفكيره كما تعمل يد النحات فى الصلصال . إنها على حد تعبير مصطفى محمود : « مناخ اجتماعى وليست خطوط طول وعرض » .

وعلى ذلك فهو يرى أن « أقصر طريق يوصل إلى الغابة هو الطريق الذى يسير عبر الخط الإنسانى . لا الخط الحديدى . . الخط الذى يقف بالقبائل والمجموعات البشرية . . لا بالمراكز والمحطات . . فالمحطات الحقيقية هى الحقب التاريخية . . ونقط انتقال الإنسان من مرحلة إلى مرحلة » .

ومن هنا كانت نقطة انطلاق مصطفى محمود . . نقطة انطلاقه عبر أحراش الغابة بحثاً عن أحشاء الإنسان . . عن روحه الدفين . . عن ضميره الحى . . عن الإنسان الإنسانى ، أو الإنسان بما هو إنسان !

وكان لزاماً عليه لكى يلتقى بهذا الإنسان أن يخلع ثوب السائح ، وأن يتعرى من أغطية المدينة،وأن يتحرر من كل ما من شأنه أن يحول بينه وبين

لقاء الإنسان . . الإنسان بكل بساطته وبكارته وإحساسه الطبيعى الأول . هذا الإنسان هو الذى غنى معه مصطفى محمود ورقص ، غنى فى نشوة ، وضحك فى إشراق ، وارتمى على صدر الطبيعة مرتداً إلى ما فى داخله من إنسان :

« طفولة الإنسانية الحلوة ، كنت أراها حولى ، الطفولة بكل براءتها ، وخطاياها ، ومرحها ، وانطلاقها النشوان كانت ترقص على نقرات أشجار التيك المجوفة . . لا يسترها شيء . . لم يكن عند واحد من هؤلاء الأطفال الكبار شيء يخيفه . . كل منهم كان يغنى من أحشائه . . وكان يعطى نفسه كلها للحظة التى يعيشها . لا افتعال . . لا خجل . . لا تمثيل . . لا غرض من وراء أى شيء . . وإنما الكل يرقص لأنه فرحان . . لأنه يعيش بجماع قلبه » .

وكان من الطبيعى بالنسبة لمصطفى محمود . . هذا الذى يحاول أن يتجنب المستحيل الذى لا يطاق . . والذى أطبق عليه فى شوارع المدينة . . يحاصره ويتحداه ويناصبه العداء . . بعد أن أعلن موت الله . . وضياع الإنسان ، كان من الطبيعى أن يعانق هذا الإنسان،وأن يشاركه أعياد الطبيعة وأفراح الحياة ، وكأنما يتمسك بتلاليب الإنسان إلى أن يعود فيرى الله : « وشعرت بالدماء تدب فى أوصالى الباردة . . وشعرت بطفولتى الدفينة تحت ركام ثلاثين عاماً من كابوس المدينة . . تطل برأسها . . وتتمطأ . . وتنبثق من تحت الردم . . وتسرى فى جسدى كسيال من الكهرباء . . وشعرت بنفسى أقوم . . وأهتز . . وأرقص . . كما لم أرقص فى حياتى . . كطفل مولود تهدهده أمه . . الطبيعة » .

وقد يتراءى للبعض أن يصف هذا كله « بالهمجية » ، ولكن هل المدينة علاج لهذه الهمجية ، وهل تخلصت المدينة من همجيتها حتى تسخر من

همجية الغابة ، ثم من قال إنها همجية ، إنها عند مصطفى محمود الحياة على الطاهرة والبكارة ، الحياة بعيدة عن كل معانى السلطة والتسلط ، الحكم والتحكم ، الابتذال والاستغلال . . « جد هذا الزنجى العجوز الذى يهز كتفيه أكل ذراعاً بشرية فى الأيام الخوالى . . ربما . . ولكن ماذا فعلنا نحن بالقنبلة الذرية فى عصر النور والمعرفة والحضارة . . كم أكلت هذه القنبلة من أذرع وسيقان ، وكم هشمت ، وكم نهشت من وجوه جميلة فى هيروشيما » .

وقد يتراءى للبعض الآخر أن يصف هؤلاء البشر بأنهم « وحوش . . همج . . برابرة . . يؤمنون بالخرافات » وعلى هؤلاء يرد مصطفى محمود : « وبماذا نؤمن نحن ؟ » .

ويستطرد فى هذا الرد شارحاً الفارق الإنسانى وليس الحضارى بين ناس الغابة وناس المدينة ، بين الحياة هنا والحياة هناك : « هنا الناس أرحم . . وأكثر إنسانية من ناس المدينة . . وهنا حضن الطبيعة أكثر دفئاً . . وأكثر خصباً . . وصدر الطبيعة هنا رطيب . . مبلل بالأمطار . . مخضل بالندى . . ضرعه لا يجف . . ولا ينضب منه الحليب .

كم تمنيت أن أستلقى على هذا الصدر وأنام » .

وإمعاناً فى الاستطراد ، وتغليب حياة الإنسان حتى ولو فى حضن الغابة ، على الحياة اللاإنسانية ولو فوق مائدة المدينة . يقول مصطفى محمود : « لماذا يهدنا التعب هكذا فى المدن . . كل المدن . . فى القاهرة . . فى لندن . . فى موسكو . . فى باريس . . فى كل المدن . . الناس مهمومون شاحبون ، يسيرون بخطى مثقلات . . كأنهم على سفر شاق لا ينتهى . » .

ويتساءل مصطفى محمود : « لماذا لا نعرف مثل هذا المرح الطليق عندنا فى المدن ؟ لماذا لا نرقص هكذا من أحشائنا ؟ »

ويزداد تساؤله عندما يستعرض كل دواعى الفرح فى المدينة ، عندما يستعرض السينمات والمسارح والأوركسترات ، وعندما يتذكر الإذاعة والتليفزيون ، وعندما يذكر المضحكون المحترفون : ويذكر معهم أجمل وأشهى النساء ، وأفخر أصناف الويسكى ، والسيارات فى الشوارع ، وأجهزة التكييف فى المنازل ، وأكوام الأموال فى البنوك ، ومع هذا كله ، يغزونا الحزن ، ويعشش فى قلوبنا الأسى ، ويكسو وجوهنا الهم ، ونمشى كما الرجال الجوف . . ظل ولا لون . . إشارة ولا حركة . . ضحك ولا فرح . . ويبحث كاتبنا الأديب عن سبب واضح لكل أغانينا الحزينة ، وكل وجوهنا الشاحبة ، وكل قلوبنا المريضة ، وكل أرواحنا المتعبة ، وكل ما من شأنه يجعلنا نشعر بالذنب !

« هل هى المعرفة ؟ . . هل هى القوة التى وضعها العلم فى أيدينا ؟ . . هل هى القنبلة والذرة وزجاجة الدواء ؟ . . هل هى هموم المسئولية ؟ أم هى الدين والفن والعلم الذين اجتمعوا معاً ليصنعوا لنا هذه الحضارة الحزينة ؟

هذا هو السؤال . . وكائناً ما كانت الإجابة عليه . . فالذى يؤكده مصطفى محمود أننا نعيش فى المدن . . كل المدن . . حزانى مهمومين !

وهذا على العكس تماماً من تلك الحياة الحافلة بالرقص والفرح التى يعيشها أهل الغابة ، فإذا كان الإنسان هناك فى المدينة قد انتفى ، فلا شك أنه موجود . . هنا فى الغابة ؛ وقد لا نجد الله فى الغابة ؛ وهو بالتأكيد غير موجود ، لأنهم استبدلوا الإله الواحد ، بأكثر من إله ، آمنوا بتعدد الآلهة ، عندهم . . جوك . . ونايجوك . . وماريا ك . . ومبولى . . وجان لوكى . .

وجان لوكاك . وكاوث . ودنجديث . . وتومو ، آلهة متعددة تذكرنا بآلهة الأولمب !

وقد نكتشف عند بعض القبائل آثار عقيدة قديمة راسخة تتعلق بكائن أسمى . . يوصف بأنه قادر على كل شيء . . رحمته كاملة وحكمته كبرى . . وهم يصفونه بأن الرعد صوته . . والرياح من أنفاسه . . والعواصف علامة غضبه ؛ وهم يسكنونه السماء ولا يصورونه فى رسومهم ، وإن كانوا يتصورونه فى أخيلتهم على هيئة طائر عظيم ناشر الجناحين،على نحو يشبه صورة حوريس فى الديانة المصرية القديمة .

غير أن هذا الإله الأسمى الذى يسكن السماء ، قد تمادى فى سموه حتى أنه بعد أن خلق البشر لم يعد يهتم بشئونهم أو يعنى بدنياهم ، فهو أشبه بالمحرك الذى يحرك ولا يتحرك ، والذى حدثنا عنه أرسطو . لهذا يلجأ الإفريقيون إلى وساطة الأسلاف وإلى الاستعانة بالطواطم فضلاً عن فنون السحر !

وإذا كان هذا معناه غياب الإله ، فمعناه فى ذات الوقت حضور الإنسان ؛ فالغابة أسعد حالاً من المدينة لأنها وإن انتفى فيها وجود الله ، فقد تأكد فيها قيام الإنسان ، ومع هذا فالله الغائب فى الغابة ليس هو الله الميت فى المدينة ، فثمة علاقة ما تربط ما بين الاثنين ، أو على الأقل تمنح الإنسان كل هذا الفرح ، وكل هذه السعادة .

إننا نقول عنهم إنهم وثنيون . . كفرة ، ولكن الله كما يقول مصطفى محمود يضفى عليهم من الفرح والمسرة ما يضفيه على أحبابه ، فإنسان الغابة هم بشكل أو بآخر أحباب الله .

ولكن أليس فى غياب الله نوعاً من المستحيل الذى لا يطاق . والذى حاول مصطفى محمود فى بحثه الدائب عن المدينة الفاضلة أن يتجنبه بقدر المستطاع؟

هل يكفى أن نجد الإنسان فى الغابة لكى نستغنى بوجوده عن وجود الله ؟ إن الله موجود بالضرورة فى مكان آخر غير المدينة التى أعلنت موته ، وغير الغابة التى أستغنت عنه ، والسؤال الآن ماذا بعد المدينة وبعد الغابة ؟

الصحراء !

ترى هل يستطيع أديبنا الرحالة أن يولى وجهه شطر الصحراء ، عساه يجد من فوق جبالها وهضابها ذلك الكائن الأعلى . . الذى هو الله ؟

⑨ الصحراء

ويخشى الأعرابى الموت غرقاً فى الصحراء

وشمس على المغنى مطالع أفقها
فمغربها فينا ومشرقها منـــا
فقيرمغربى

نعم . . إن الشمس تغرب فينا الآن . .
فمتى يكون مشرقها منا ؟ . .

هذا هو السؤال الذى يختتم به مصطفى محمود رحلته فى الصحراء ؛ وهى الرحلة التى حاول أن يجد فيها « فردوسه المفقود » بعد أن وجد فى الغابة « فردوسه المستعاد » ، وكأنما يردد صيحة الأعرابى « جاء الوادى » عند سقوط السيل لينذر بالخطر ! ومعروف فى الأصل أن كلمة « عرب » وكلمة « صحراء » مترادفتان ، وقد جاء فى القرآن أن الأعراب هم العرب الرحل لا غير ،

أى عرب الصحراء !

والصحراء كما نعرف تتميز بحرارتها الشديدة ، وبما يحدث فيها من تقلبات عنيفة ومفاجئة ، ففى الهضاب وسط الجزيرة يعقب الصيف القاسى فى حرارته ، الشتاء القارس فى برودته ، بل قد يجىء فى فصل واحد ليل ثلجى بعد نهار قائظ ، فعند شروق الشمس كما عند غروبها ، تحدث فى دقائق معدودات تقلبات جوية يبلغ من عنفها أن تتحول الصخور إلى فتات ، ومن ثم يتكون الحصى الذى تسفيه الرياح ، ويتحول إلى تلال من الرمال .

وقد تمضى شهور فى هدوء تام ، ثم تبدو بقعة فى الأفق ، وتأخذ فى الاتساع ، ولا تمضى لحظات حتى تغزو المكان كله ، وهذه هى رياح السموم التى تدمر كل شىء ، وتغرق القوافل ، وتنقل التلال من مكان إلى مكان ، وتغطى الأخوار وتغير شكل الصحراء !

ويحدث أن تمر سنوات لا مطر فيها ولا ماء ، ثم تظهر نقطة سوداء فى السماء الصافية ، وبعد قليل تتحول إلى غيوم حالكة ، وتمتد إلى الجزء الأكبر من السماء ، ثم تأخذ الأمطار الشديدة فى الانهمار .

وفى مهابط الأودية تسقط السيول فجاة ، فى موجات قوية تأتى على كل ما يقف فى طريقها ، حتى لتحمل معها الخيام المنصوبة ، وتغرق الجمال والجمالين . وأخيراً تنقلب المنخفضات القاحلة إلى مستنقعات ، ثم يقف الطوفان فجأة كما جاء فجأة ، ويجف السيل بعد أن يخلف ما كان منه من مستنقعات ، وفى عدة أيام تنمو الحشائش والنباتات نموا سريعاً ، فى هذا الجو الرطب الذى لا يستمر طويلاً ، فتنمو الخضرة فى الأراضى الشاسعة ، وتظهر فيها الأزهار والحبوب !

إلا أن شقة الشمس لا تلبث أن تعود فتشتد ، وتهب السموم من جديد ، ويجف ما كان رطباً ، وتعود الصحراء قاحلة لشهور قد تمتد إلى أعوام !

هذه هى الصحراء ، الصحراء القاسية والصحراء الحانية ، صحراء الموت وصحراء الحياة ، الصحراء التى تتصل فيها الأطراف ، أو يمتزج بعضها بالبعض الآخر ، فلا تعرف التدرج ولا التوسط ، ولا التقارب بين الأضداد ، ولا الوحدة فى الاختلاف ، وإنما الذى تعرفه هو طرفى النقيض ، وهو ألا يكون الإنسان فاتراً . . إما حاراً أو بارداً !

وتلك هى الصحراء ، وذلك هو الفردوس . . مفقوداً أو مستعادا !

وكانت واحة « غدامس » فى الصحراء الليبية ، هى ذلك الفردوس المفقود أو تلك الجنة العجيبة التى تبلغ درجة حرارتها ٤٨ ، وتجرى من تحت بيوتها الأنهار ، ولا يعرف أهلها السرقة ولا القتل ، وفيها « عين الفرس » التى تسقى الواحة كلها ، والتى كانت قد تفجرت تحت أقدام فرسه عقبة ابن نافع . ثم فيها بعد هذا كله روح « سيد البدرى » الصحابى الجليل ، الذى دخل « غدامس » مع جنود عقبة فى عام ٤٢ هجرية ، وحارب الكفار ، وكافح حتى نشر الإسلام فى آخر زقاق من أزقة الواحة ، ثم استشهد منذ أكثر من ألف عام .

وفى الطريق . . طريق مصطفى محمود إلى ضريح السيد البدرى ، كان يقول لنفسه طول الوقت : « أخيراً وجدت الرجل الذى صنع المستحيل » !

فما هو هذا « المستحيل » الذى لا يطاق ، والذى نتمناه وإن كنا نخشاه ، والذى صنعه السيد البدرى ؟

إننا إذا استبعدنا عنصر « المغامرة » فى رحلة مصطفى محمود إلى الصحراء ،

ووضعنا كلتا يدينا على جوهر هذه الرحلة ، أو عنصرها الجوهرى ، وجدناه فى ذلك « المستحيل » البشرى الذى صنعه الصحابى الجليل ، وفى تلك البقعة من الصحراء . غدامس . . أو النقطة الخضراء كما يسمونها ، والتى يرتكز فيها تاريخ أربعة آلاف سنة من الحضارة !

ولا يعنينا كثيراً تاريخ هذه الواحة . . متى ولدت ؟ . ولا تاريخ تلك « العين » متى تفجرت ؟ . وهل بدأت الواحة قبل العين أم بدأت بالعين ؟ وهل كان ذلك منذ أكثر أو أقل من أربعة آلاف عام ؟

لا يعنينا هذا كثيراً ، ولا يعنينا كذلك ما تعاقب على تاريخ الواحة من موجات للغزاة ، منذ أن صارت مطمعاً للأقوياء والمغامرين . . الرومان . . والوندال . . والبيزنطيون ! ومنذ أن دخلها العرب بقيادة عقبة بن نافع ليحولوها إلى الإسلام ، ومنذ أن جاءها الأتراك بعد العرب فى القرن السادس عشر الميلادى ، إلى أن احتلها الطليان فى سنة ١٩٢٤ حتى انتهت قصة استعمار الواحة فى يناير ١٩٤٣ ، حينما أغارت قاذفات القنابل الفرنسية على مطارات إيطاليا وثكناتها فى الواحة فى الحرب العالمية الثانية،ونزل الستار على التاريخ الطويل الدامى !

لا يعنينا هذا كله فى رحلة مصطفى محمود إلى الصحراء ، وإنما الذى يعنينا هو جوهر هذه الرحلة ، والذى يتمثل فى ذلك « المستحيل » المفقود من ناحية والمنشود من ناحية أخرى ، والذى لاقاه كاتبنا الرحالة فى ضمير الصحراء !

« أخيراً وجدت الرجل الذى صنع المستحيل »

تلك هى الصيحة التى اطلقها مصطفى محمود وسط صمت الصحراء ، وكأنما هى صيحة أرشميدس الشهيرة التى أطلقها من فوق سطح الماء ؛ أما « الرجل » فهو السيد البدرى الذى سبق أن أشرنا إليه ، وأما « المستحيل » الذى

صنعه فهو ذلك الأمن أو الأمان الذى استظل الواحة ، طوال عشرات السنين . . بلا سرقة ولا قتل ولا خيانة ولا عدوان . بلا أى حادثة من الحوادث التى تعكر صفو الأمن ، لمجرد أن الواحة لا يزال بها ضريح « السيد البدرى » .

وكأنما « الرجل حياً » استطاع أن يحارب الكفار وينشر الإسلام فى ربوع الواحة ، وكأنما « الرجل ميتاً » استطاع أن يحافظ على الأمن وينشر على الواحة أجنحة السلام : فالرجل حياً هو الإسلام ، والرجل ميتاً هو السلام .

ولكن كيف يمكن لرجل ميت أن يحافظ على الأمن ؟

إن الأهالى يؤمنون به إيماناً راسخاً ، ويعتقدون أنه بفضل روح السيد البدرى يمكن الكشف عن السارق ، فحينما تحدث سرقة يجتمع المشايخ فى الضريح ويقرءون سورة يس أربعين مرة ، فيظهر السارق على الباب وهو يتوسل . . استرونى من الفضيحة يرحمكم الله . . ويرد ما سرق كاملاً .

ويتساءل مصطفى محمود وعلى وجهه علامات الدهشة والاندهاش : « وهل حدث هذا فعلاً ؟ » ويأتيه الرد « حدث كثيراً » وهنا يتقدم أحد جنود الشرطة ليروى أقرب حادث وقع ، حينما سقطت محفظة أحد السياح وبها ٤٠٠ جنيه ، والتقطها أحد الأهالى وأخفاها عن العيون . . وما لبث المشايخ أن اجتمعوا فى الضريح ، وراحوا يقرءون سورة يس ؛ وحينما بلغوا العدد ٣٢ ظهر السارق على الباب وهو يتوسل . . « استرونى . . لا تفضحونى يرحمكم الله » وألقى لهم بالمحفظة وجميع أوراقها كاملة ، وطلب الصفح والمغفرة والأمان .

ومهما يكن من تفسير هذه الحادثة بوجه خاص ، أو تلك الظاهرة بوجه عام ، فالذى لا شك فيه أن السلام الذى نشر ألويته على ربوع الواحة ، هو بفضل كرامة السيد البدرى ، وإذا كان الإيمان بدلالته وليس بتفسيره ،

أعنى بما يدل عليه ويحققه فى الواقع ، فإن ما يحدث فى هذه الواحة هو فعل من أفعال الإيمان !

وهو فعل قد ينكره المنهج العلمى وقد يرفضه المنطق الفلسفى ، ولكن الحدس الصوفى قادر على استيعابه وتمثله دون أن يتناقض فى ذلك لامع العلم ولا مع الفلسفة ؛ فالنظريات العلمية الناتجة عن المشاهدة الخارجية والتجربة الحسية تصف الظواهر دون أن تتجاوزها إلى ما وراءها ، والأفكار الفلسفية المؤسسة على النظر العقلى والدليل المنطقى تفسر الظواهر دون أن يرقى تفسيرها إلى مرتبة اليقين ، أما الأذواق الصوفية الصادرة عن البصيرة والإلهام فهى وحدها التى تستطيع إدراك الحقيقة إدراكاً مباشراً ، كما تستطيع مشاهدة كل ما يصدر عنها فى الكون من آيات الحق والخير والجمال .

وهذا هو سر إعجاب مصطفى محمود بصوفية الإسلام الذين ربما كانوا بما يخضعون له أنفسهم من رياضات ومجاهدات ، وبما يتعاقب على قلوبهم من مواجيد وأذواق ، وبما يفتح به عليهم بعد هذا كله من مكاشفات ومشاهدات أقدر من العلماء والفلاسفة على معرفة الحقيقة ، وهذا ما عبر عنه عباس محمود العقاد بقوله : « وإن أحق الناس بعرفان هذا لأولئك الذين نظروا إلى الكون بعين الباطن . . وقالوا فى ذلك ما لم ينقضه علم ولن ينقضه ما دام للإنسان لباب وراء الحواس والعقول » .

ونمضى مع مصطفى محمود فى رحلته بالصحراء ، ليروى لنا قصته مع « جبل قصر الغول » ؛ وهى القصة التى تكشف لنا عن وجه آخر من وجوه المستحيل ، ذلك المستحيل الذى يعبر إلى أرض الواقع الخارجى فوق جسر الإيمان ؛ مؤكداً حقيقة هامة هى أنه ليس بالحواس وحدها يعيش الإنسان ، ولا بالحواس مضافاً إليها جانب العقل ، وإنما بقدرته على استكناه

ما وراء المحسوس والمعقول ؛ وتحويله إلى طاقة ايجابية خلاقة،قادرة على معانقة المطلق وتحقيق المستحيل .

فها هو « جبل قصر الغول » . . جبل صغير أشهب ملىء بالنتوءات الصخرية ، قابع فوق بساط الصحراء بلا حدود وبلا طرقات وبلا عود أخضر أو قطرة ماء ؛ ومع ذلك فالهواء الجاف الساخن يحيطه من كل اتجاه والرياح تصفر فيه من كل زاوية،حتى تحيل الإنسان إلى ذرة تراب فى عالم من التراب،يدخل من فمه وأنفه وأذنيه وعينيه وجلده ، ويلذعه بملايين النبال الساخنة !

فى هذا الجبل حدثت المعركة بين جنود عقبة بن نافع وبين الكفار ؛ وفى بطن هذا الجبل حفر جنود عقبة ذلك الكهف الرهيب حتى بلغوا نقطة التقاطع مع البئر، ورابطوا هناك يقطعون كل حبل يدلى به الكفار ليستقوا من الماء حتى أشرفوا على الموت عطشاً،فلم يجدوا بداً من النزول والالتحام مع جيش عقبة ، وانتهت المذبحة بانتصار العرب .

وليست الحادثة التاريخية فى ذاتها بالشىء الهام ، وإنما الشىء الأكثر أهمية هو دلالة تلك الحادثة . . فعندما يفكر الإنسان فى الطريق الطويل الذى قطعه هؤلاء المحاربون من مكة إلى قلب الصحراء الليبية ، يسعون على الإبل وعلى الأقدام حفاة لا يملكون من الزاد إلا حفنة الرمل ؛ لا يملك إلا أن يتساءل : « أى قوة رهيبة ؟ » وأى طاقة خلاقة أطلقتها كلمات القرآن فى هؤلاء العرب الأجلاف الخارجين من غيابات الجاهلية ، حتى جعلت منهم جنود حرب ، ورسل فكر ، ومشاعل علم وحضارة !

وتتداعى الخواطر . . خواطر مصطفى محمود عندما يقارن بين العرب فى فجر إسلامهم وبينهم فى غروب الإسلام ، أو بين الإنسان العربى فى صباح

خلقه الأول وبينه فى فجر مسائه الأخير ، لينتهى إلى حقيقة مؤلمة مؤداها أنه اليوم يخسر ولا يكسب ، يخسر ذلك الشىء الذى كان يتمتع به أولئك المحاربين العظام الذين انطلقوا كالمردة ، وهبوا كالأعاصير ، وغيروا وجه الدنيا وحولوا مجرى التاريخ !

أجل : « نور القلب قبل نور الكهرباء هو ما يجب أن نبحث عنه » .

وما أحوج إنساننا العربى المعاصر إلى : « نبع روح . . فنبع بترول لا يكفى » .

تلك هى الخلاصة التى يخلص إليها مصطفى محمود وهو يقارن إنساننا العربى . . فى أمسه البعيد ويومه الحاضر ؛ فى أمسه البعيد خرج النور من أفقر أمة على وجه الأرض ، لا تملك سوى البعير والخيام ، خرج النور ليقتحم على الفرس والروم ديارهم وكل ذخيرته كلمة حق ، كلمة عدل ، كلمة سلام .

أما فى يومه الحاضر فعنده الحديد والصلب والكهرباء ، وعنده البترول والمال والثروة ، ومع ذلك نراه يغوص كل يوم فى الحقد والكراهية ، فى الضعف والفتور ، فى كل ما يبعده عن جذوره الأولى وماضيه العظيم !

لقد أضاء لنا العلم المادى بيوتنا ولكنه لم يضئ لنا قلوبنا ، قدم لنا جاهلية جديدة أسلحتها الغواصات والصواريخ والقنابل الذرية ، ولكنه لم يقدم لنا الكلمة الجديدة ، الكلمة التى كانت فى البدء ، والتى ينبغى أن تكون فى الختام .

ويركع مصطفى محمود يلثم رمال الصحراء ، التى روتها يوماً دماء الشهداء ، وفى طريق عودته كانت أكثر من عشرين مئذنة تؤذن باسم الله !

ويقوده الأذان إلى الحديث عن « كلمة الله فى الصحراء » ! فكلمة

الله فى الصحراء هى التى فجرت كل تلك الهبات والثورات التحررية التى غيرت وجه الأمة العربية ، صحيح أن الصحراء كانت دائماً مخبأ عظيماً للحرية ، ووكراً للثوار والمفكرين ، ولكن الصحيح أيضاً أن كلمة الله كان لها أثرها وتأثيرها فى قلوب أهل الصحراء . لذلك لم تكن مصادفة بل كان مما يتفق وطبائع الأشياء أن اكتست جميع هذه الحركات التحررية بكساء الدين ، وتدثرت فى حضن الكلمة . . . الله !

وليس أدل على ذلك كله من ظهور السنوسية فى الشمال الإفريقى ، وظهور المهدية فى السودان وهما أكبر حركتين تحرريتين شهدتهما الصحراء .

ويتكلم أديبنا الرحالة عن الدعوة السنوسية ، وكيف كان ابن السنوسى يتنقل لينشرها بين البدو والبربر والطوارق وقبائل التبو وأولاد سليمان والمجابرة ، حتى صارت بحيرة تشاد مركزاً إسلامياً هاماً فى وسط إفريقيا ، وحتى بلغ عدد أتباع السنوسية فى عام ١٨٧٣ حوالى ثلاثة ملايين ، وأصبح السنوسى باعتراف المستشرقين أنفسهم المؤسس الحقيقى لأكبر أخوة دينية فى افريقيا .

وما كان يمكن للسنوسى أن يحقق هذا كله ، لولا كلمة الله التى أطلقها فى الصحراء ، تلك الكلمة التى وصفها بأنها « تنبه الغافل ، وتعلم الجاهل ، وترشد الضال » . أما وسائله فى نشر الدعوة فكانت هى التقرب إلى الله بالعلم والقرآن والعمل الصالح ، واتباع الزهد وقراءة التسابيح والذكر حتى يصل بالمريد إلى درجة النورانية والوجد .

ولكن هل معنى هذا أنه كان صوفيًّا منقطعاً للزهد والعبادة ؟ كلا بطبيعة الحال ، وإنما كان مبشراً له رؤية اجتماعية ، وفى ذهنه نظام مثالى عاش يخطط من أجله ؛ ذلك لأن التصوف الحقيقى فى جوهره « فعل » وليس مجرد « انفعال » ، والمتصوفة الحقيقيون كانوا دائماً رجال عمل كما تدلنا على

ذلك أعمال رجل مثل القديس بولس ، أو فتاة مثل جان دارك ، أو قديسة مثل القديسة تريزا ، أو إمام مثل الإمام الغزالى،أو مصلح دينى مثل الأفغانى ، فهؤلاء جميعاً على الرغم مما قد يكون بينهم من اختلاف فى التعبير عن تجربتهم الحدسية المباشرة ، إلا أنهم يصدرون عن احتكاك مباشر أو اتصال فعال بالجهد الخالق الذى يكمن من وراء الحياة ، والذى يرتد ثانية إلى تيار الحياة ، كى يوجهه فى الاتجاه السليم .

فالتصوف الحقيقى إلى جانب ما فيه من انفعالات قوية من الغبطة الروحية ، والنشوة الصوفية ، والانجذاب الروحى ، فيه الإيمان بضرورة بذل الذات ، وفاعلية العمل الإنسانى ، وكل ما من شأنه الوصول إلى تلك « الثقة الصوفية » التى قد تستحيل إلى قوة تزحزح الجبال وتحقق المستحيل !

من هنا كان حلم السنوسى بإعادة بناء العالم الإسلامى على صورة جديدة ؛ ومن أجل هذا الحلم أنشأ نظام الزوايا ، حتى كانت هناك فى أواخر عصره ١٢١ زاوية ، منها سبع عشرة فى مصر ، وواحدة فى استامبول ، واثنتان فى الحجاز ، وست وستون فى طرابلس وبرقة ، وعشرة فى تونس ، وخمس فى المغرب ، واثنتا عشرة فى السودان الإفريقى .

ولكل زاوية رئيس هو شيخ الزاوية ، ومجلس يضم وكيل الزاوية وشيوخ القبائل وأعيان المنطقة ، ومن شيوخ الزوايا جميعهم يتألف مجلس أعلى يترأسه السنوسى ، وهو نوع من التنظيم الهرمى ، فى أسفله قاعدة من الأتباع والمريدين ، يليهم إلى أعلى شيوخ القبائل ، ثم شيوخ الزوايا ثم الشيخ السنوسى !

وهكذا كانت السنوسية كما يقول مصطفى محمود « دولة داخل الدولة » وكان السنوسى يحلم بإعادة بناء العالم الإسلامى وتوحيده بتكاثر هذه الزوايا

حتى تبتلع الأمة العربية فى داخل هذا الشكل التنظيمى الجديد من الاشتراكية الإسلامية !

ولكن الاستعمار الإيطالى الزاحف من الشمال ، والاستعمار الفرنسى الزاحف من الجنوب ، لم يمهل هذه الحركة حتى تؤتى ثمارها ، وما لبث أن أطبق عليها بكلابة الحديد والنار ، وفى لحظة وجدت السنوسية نفسها فى موقف الدفاع .

وانطلق الرصاص من عشرات الزوايا فى أعماق الصحراء ، واستمرت مقاومة السنوسية للفرنسيين فى الجنوب عشر سنوات ، كما استمرت مقاومتهم للإيطاليين فى الشمال عشرين سنة ، ولكن الصلب والبارود والصناعة الغربية والعلم الغربى استطاع أن يهزم بدو الصحراء .

وفى كل صدام بين الشرق والغرب كانت الصناعة الغربية هى التى تحسم المعركة ، إلى أن تعود كلمة الله لتنمو فى ضمير الإنسان العربى ، وتتكاثر فى خلاياه ، فيطلقها فى جوف الصحراء لتقوم قيامته من جديد ؛ فإذا غربت فينا الشمس ، فلا بد أن يكون مشرقها منا ، وكأنما الإنسان العربى يعيش لا على سنة الحياة ، ولا وفقاً لناموس الكون ، ولكن لأنه على موعد مع الله !

ألم يكن ذلك هو المعنى الـذى قصده « عبد الله فى أرض الله » ببيته الشعرى الجميل والجليل معاً ، ذلك الرجل المغربى المنقطع للعبادة ، الذى لم يشأ أن يذكر اسمه ولا مكانه لأديبنا الرحالة ، وإنما اكتفى بعبارة : « عبدالله فى أرض الله » ؟ !

وهو لا يلبس من الدنيا إلا برداً من الصوف ، ولا يجلس على الأرض إلا بغير فراش ، ولا يتوسد من الأشياء إلا الحجر ، ولا يأكل إلا بضع تمرات

فإذا ارتحل فأعشاب الطريق هى زاده من الطعام .

ويسأله مصطفى محمود : « كيف تجد الكفاية فى هذه الأعشاب ؟ »

فيرد عليه الرجل الصالح : « كف يدك عن الأذى ، وطهر لسانك عن الغيبة ، وافتح قلبك للحب ، يجعل لك الله فى كل عود أخضر من هذه العيدان غذاءً كاملاً » .

فيسأله أن يعظه ، فينظر إليه فى حياء ويغمغم :

« قال الله للمسيح : « يا عيسى عظ نفسك ، فإن اتعظت فعظ الناس ، وإلا فاستح منى »

« وأنا لم أتعظ بعد لأعظك » .

فيقول له مصطفى محمود وهو لا يزال يحاوره : « إذن تمنحنى بعض كلمات تكون زادى فى الطريق » .

فيقول له الرجل الصالح وهو يرسل نظراته إلى الأفق البعيد : « اصرف كل اهتمامك للعلم ، فإن الله لا يعبد إلا بالعلم » .

وكأنما بكلمة « العلم » لخص الرجل قصة الصراع بين الشرق والغرب ، ولماذا ينتصر العلم الغربى فى كل معركة ، ولماذا تغرب فينا الشمس ، التى لن تشرق منا ثانية إلا بالعلم ! .

فالعلم الأجوف وحده لا يكفى ، وإنما العلم لا بد أن يؤدى إلى عمل ، حتى يكون بحق علماً عاملاً ؛ وهذا ما عبر عنه الإمام الغزالى بقوله :«ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل » . وهذا معناه أن العلم لا يكتسب شرعيته إلا إذا أدى إلى سلوك وفعل ، إلى تحقيق وإنجاز ، إلى تحرير وتعمير !

وهذا هو سر حسرة الرجل الصالح على أهل هذا الزمان ، الذين اعترفوا بالله ولكنهم تركوا أمره ، وقرءوا القرآن ولكنهم لم يعملوا به ، وقالوا نحب

الرسول ولكنهم لم يتبعوا سنته ، وقالوا نحب الجنة ولكنهم تركوا طريقها ، وقالوا نكره النار ولكنهم تسابقوا إليها ، وبنوا القصور ولكنهم نسوا القبور .
وراح الرجل يقارن بين أهل زمانه وأهل زماننا ، فلخص الموقف كله فى سؤال واحد :

« لقد كنا فى زماننا نحلم بالحج إلى مكة والقدس والموت بهما ، وأنتم جاءتكم فرصة الشهادة إلى بابكم بالقدس فماذا فعلتم ؟ » .

ولم يجد مصطفى محمود كلمة يجيب بها ، أما الرجل الصالح فراح يبكى ويغمغم :

وشمس علي المعنى مطـــالع أفقها
فمغــــربها فينـــا ومشرقها منـــا

نعم . . إن الشمس تغرب فينا الآن ، فمتى يكون مشرقها منا ؟
متى تعود الشمس لتشرق منا ؟
متى ينتهى الغروب والليل الطويل ، وينبثق منا الفجر من جديد ؟

هذا هو السؤال الذى تردد فى ضمير أديبنا الرحالة ، وذاك هو الجواب الذى تغمغم به الفقير العجوز المجهول الاسم والمكان : عبد الله فى أرض الله !

والخلاصة التى يخلص إليها مصطفى محمود بعد عودته من رحلته إلى الصحراء ، هى أن الله موجود فى كل مكان ، ولكنه أكثر وجوداً فى الصحراء ، وإذا كان وجوده فى كل مكان حقيقة ، فإن وجوده فى الصحراء معرفة !

إذن كيف الطريق إلى معرفة الله ؟

إنه عند مصطفى محمود . . الطريق إلى الكعبة . . فالطريق إلى الكعبة هو الطريق إلى الله !